

الكتابة الأيديولوجية عند محمد ديب

رواية الحريق-نموذجا-

الأستاذ: سليم بتيقة

قسم اللغة والأدب العربي
جامعة جيجل

في رواية "الجزيرة العجيبة" (L'île mystérieuse) للكاتب الفرنسي "جيل فارن" (1828-1905 Jules Verne) اعتبر الأبطال الذين رمى بهم البحر في هذه الجزيرة مستعمرين، جاؤوا إلى هذه الجزيرة لاستعمارها، وأول ما قاموا به تسمية هذه المنطقة بأسماء مستعارة من بلادهم الأصلية، والتي تذكر باكتشاف أمريكا.

إن هذا العمل يبدو ممثلا للمؤسسة الاستعمارية المصنفة على حد تعبير جان "لوي كالفي" (Jean luis Calvet): "كل شيء يبدأ بالتسمية، إن ازدراء الآخر يظهر عند أول اتصال يسبق الاحتلال داخل المؤسسة التصنيفية (Taxinomique)" (1)

وبالمثل نجد في قصة (روبنسون كروزو) (Robinson Crusoe) للكاتب (Daniel Defoe) (1719) أن هم البطل هو كيفية تعليم (Vendredi) الساكن الأصلي الإنجليزية. لقد تعلم اللغة الإنجليزية التي فرضها عليه المحتل حتى يفهم أوامر هذا الأخير.

من هذين العاملين المعروفين في الآداب الأوروبية، يمكن ملاحظة حقيقة العلاقات اللغوية بين المحتل والأهلي، علاقات أثبتت الخضوع، وهي حتما تمر بتكوين مفروض، ولكنه تكوين لا يتعدى حقل الاستعمال والتربية الخلقية.!

لغة المحتل، لغة القوة والسلطة الاستعمارية. (2) اللغة الفرنسية هي دوما مظاهرها التاريخية، بما أنها لغة الأمة الامبريالية. إنها تحول بالضرورة المتكلمين بها إلى امبرياليين من منطلق ترسيم أن الذي يستعمل هذه اللغة لا يمكن إلا أن يكون محتلا، يمكن إدماجه كما يمكن تهيمشه لا يهم. إن المثقف باللغة الفرنسية في المستعمرات القديمة يجد نفسه مسلوبا وراغبا في البقاء كذلك رغما عنه. سعت فرنسا منذ أن وطأت أقدامها أرض الجزائر إلى فرض ثقافتها، فكان التدريس من أهم الوسائل والركائز التي اعتمدتها لتحقيق ذلك. في هذا الصدد يؤكد "لويس ألتيسير" (Luis Althusser) على الدور الرئيسي الذي تلعبه المدرسة بسبب أنها جهاز "أيديولوجي" أساسي للدولة' (Appareil idéologique d'Etat) * يقوم على إنتاج "الأيديولوجيا" السائدة

وهو الشيء الذي دفع بالسلطات الفرنسية إلى محاولة القضاء بداية على التعليم الأصلي الذي كان منتشرًا عبر كل البلاد قبل مجيء المحتل. فقد وجد الفرنسيون في جزائر (1830) أنفسهم أمام الوضعية الآتية:

الملاحظون والجواسيس العسكريون اعترفوا في تقاريرهم أن التعليم العام المجاني كان منتشرًا على نطاق واسع، وفي هذا الصدد كتب الجنرال (Valzé) سنة (1834): «عملًا كل العرب كانوا يعرفون القراءة والكتابة». (3).

بعد الاحتلال كان مصير المدارس الابتدائية والعليا الغلق والتخريب، المعلمون أجبروا على الهجرة، والنتيجة كما يقول الجنرال (Bedeau) متحدثًا عن مقاطعة قسنطينة في الفترة الواقعة بين (1837-1850): «عدد التلاميذ انتقل من (1400) إلى (350) في الابتدائي، ومن (700) إلى (60) في التعليم العالي خطوة كبرى إلى الوراء تم تحقيقها في هذا الميدان». (4)

هذه السياسة الاستعمارية الرامية إلى سلخ هذا الشعب من جذوره العربية الإسلامية دفعت بالمنظرين إلى البحث عن آليات الهيمنة الثقافية بعد أن تم احتلال الأرض، فخرج "جيل فيري" (Jules Ferry) (1870) (5) الوزير الفرنسي للتربية بقوانينه التي تفرض استعمال اللغة الفرنسية في المدارس* التي تم إنشاؤها لصالح الأهالي. إذن فقد كانت سيطرة اللغة الفرنسية لغة المحتل بشكل عنيف ولا بأس من الاستشهاد بهذه الأبيات الشعرية البربرية (المترجمة) والتي تعبر بصدق عن هذا العنف اللغوي :

**Le jour ou nous fut révélé "bonsoir" nous avons reçu
De prison à Un coup sur la mâchoire nous avons été rassasiés
clef.
Le jour ou nous fut révélé "bonjour" nous avons reçu
Nous. Un coup sur le nez les bénédictions ont cessé pour
Le jour ou nous fut révélé "merci" nous avons reçu
Que Un coup sur la gorge la brebis inspire plus de crainte
nous.
Le jour ou nous fut révélé "le père" nous avons reçu
Un coup sur le genou nous marchons dans la honte jusqu'au (6)
poitrail.**

الشاعر يتحدث إذن عن هذا العنف اللغوي الممارس من طرف الاستعمار، فكلمات مساء الخير، صباح الخير، شكرا، الأب، والتي تم كشفها للأهالي على أنها من وحي الحضارة، لم تزدهم إلا اغتصابا، فقد كان وقع هذا الأمر شديدا قضى على اللغة الأم، وعلى الشرف، ثم كان الخضوع القسري .

إن تغني الاستعمار بهذه السياسة يمكن تشبيهه بتلك الأغاني التي تصدر عن حوريات البحر **les sirènes** (أسطورة غربية تفيد بوجود كائن بحري نصفه العلوي امرأة في غاية الجمال والنصف السفلي سمكة، تستهوي بجمالها وغنائها البحارة وتجرحهم إلى أعالي البحار لتفرقهم في النهاية).

لقد شكلت اللغة، الدين، والهوية أهم مستهدفات برامج المدرسة الفرنسية حتى ترقى الجزائر في سلم الإنسانية، وتنعم بإنجازات الحضارة الحديثة !.

يقول "دي روفيكو": «إني أنظر إلى نشر تعليمنا ولغتنا كأنجع وسيلة لجعل سيطرتنا في هذا القطر(الجزائر) تتقدم في إحلال الفرنسية تدريجيا محل العربية فالفرنسية تقدر على الانتشار بين السكان خصوصا إذا أقبل الجيل الجديد على مدارسنا أفواجا أفواجا».(7)

إن المحلل لهذا الشاهد وغيره ليلمس بوضوح أهداف "الاستخراب " الفرنسي للجزائر المتمثلة في إلحاقها ثقافيا وحضاريا بالحضارة الفرنسية، تمهيدا لتحقيق مصالحها الاقتصادية والجيوسياسية.

إن فرنسا لا تعترف إلا بحضارة الرجل الأبيض "السوبرمان" (Superman) ولا يمكن الاعتراف "بالآخر " المغاير وبثقافته وحضارته إلا في هذه الحدود أي حدود التبعية، والذيلية، وقد عبر أحد الكتاب عن ذلك بقوله: «بما أن الحضارة الغربية تسعى للقضاء على غيرها من الحضارات فإنه يمكننا نعتها بكونها "لا حضارة" (Décivilisation) ... إن الغرب عالم وحيد يدعو إلى الإنسان الوحيد والأمة الوحيدة والحضارة الوحيدة، وكل مايتعلق بالإنسانية بمعنى الجمع والكثرة يعتبر محظورا».(8)

في هذه المدرسة الاستعمارية تلقى أربابنا مبادئ اللغة الفرنسية وثقافتها وأيديولوجيتها الاثنومركزية، ومنهم "محمد ديب". وإذا كانت اللغة تشكل مكونا أساسيا فإن ثمة عنصر الحياة

الجزائرية التي أعطت للكاتب تجربة خاصة أثرت في أعماقه إلى الحد الذي جعلته يغوص في حقائق ورؤى لم يسبقه إليها أحد، خاصة إدانة الاستعمار وكشف حقيقة ما يتعرض له الشعب الجزائري من محن وويلات، وهو الأمر الذي لم يجرؤ الكتاب الفرنسيون التعرض إليه -إلا النادر منهم- لأن إدانة الاستعمار قد تؤدي إلى خلق أزمة داخل الضمير الفرنسي وبالتالي إقلاق راحة الفرنسي الذي يجد نفسه مسؤولاً مباشرة أو بصفة غير مباشرة عن المأساة إذ أين هي العائلة الفرنسية التي لم تشارك بصفة أو بأخرى فيها؟

فالمعمل الروائي إذن يستجيب لمطلب اجتماعي، وهذا يؤدي بنا إلى الاستنتاج بأن الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية تتوجه عموماً إلى الساكن "الأصلي" (L'autochtone) وباسم هذا الأخير تحتج على الأوضاع التي يعيشها بهذا الخطاب الروائي والذي له نفس الاحتياجات الأيديولوجية لدى الكاتب.

غير أن الظروف التاريخية لم تمكن الكاتب من تحقيق هذه الرغبة (أن يكون له جمهور جزائري) هذه الرغبة والتي تبدو منطقية من جهة إلا أن لغة التعبير المستخدمة في الرواية ليست هي اللغة الطبيعية لهذا الجمهور. من جهة أخرى فإن الأمية قللت من عدد الجزائريين المرشحين لأن يكونوا قراء لهذه الرواية.

هذه الرواية التي أدانت الاستعمار كانت نتيجة المثاقفة والتي جاءت على مستويين: مستوى الشكل الروائي، ومستوى الأداة التعبيرية وهي اللغة الفرنسية.

تتجلى المثاقفة في رواية (الحريق) باعتبارها نتاج تفاعل ثقافي على مستوى الشكل والأداة أولاً، وبحكم أنها تتوجه إلى القارئ الآخر الكولونيالي ثانياً حتى يغير نظرته للأهالي، ويتعاطف مع الأهالي كما يقول "عبدالله العروي": «عندما نفكر، نفكر أولاً في الآخر». (9)

تسعى رواية (الحريق) إلى تكريس القطيعة الشاملة مع الأيديولوجيا الاستعمارية لذا كان لا بد من تأسيس لغة جديدة، خاصة بعد أحداث الثامن ماي (1945) فكان أن بشرت رواية (الحريق) بهذه اللغة في وقت تنامي فيه الوعي السياسي من خلال الأحزاب السياسية التي فشلت في اقتطاع وعود فرنسا بالاستقلال، وفشل مشروع "بلوم فيوليت" فكانت الكتابة الأدبية آنذاك على حد تعبير "مولود معمري" خروجاً من المأزق بالكتابة قبل الخروج منه في الواقع. (11)

في ظل الأجواء المشحونة التي ميزت فترة الخمسينيات، وباعتباره كاتباً مثقفاً وملتزماً بقضايا وطنه، أكد "محمد ديب" على وظيفته كمقاوم في مجال الأدب بإنتاجه لأعمال تتميز بالحقيقة وتعبر بصدق عن القطيعة مع "الأيدولوجيا" الاستعمارية التي فرضت الزيف من خلال الرواية الكولونيالية الحاملة لهذه الأيدولوجيا في تجلياتها المرحلية المختلفة.

يؤسس النص الروائي في (الحريق) لتطلعات الشعب الجزائري وذلك بالتحاميه بالأيدولوجيا الوطنية، محاولاً نقل القارئ إلى مشاهد حقيقية من معاناة الفلاحين في قرية "بني بوبلان" من خلال التوظيف الفني على مستوى الرمز والتنبؤ.

النص يحمل دلالات "أيدولوجية" تظهر للقارئ من خلال محاولة "محمد ديب" تكسير اللغة الفرنسية، وجعلها تعبر عن العنف والثورة، ثم إكسابها غزارة شمال إفريقيا وهو في ذلك لا يقلد الأدب الفرنسي، على الرغم من أنه تبنى تقنياته الروائية، كما عمد "محمد ديب" إلى خلق كلمات جديدة تحقق هذا الانفصال عن فرنسا كلمات من واقع الحياة الجزائرية، ذلك أن "ديب" كاتب يملك شيئاً يريد أن يقوله فلم تقدر اللغة الفرنسية على نقل هذا البوح.

يقول "محمد ديب" في هذا الصدد: «إن الصور التي تسكن مخيلتي نشأت من العربية العامية التي هي لغتي الأم، ولكن هذا الإرث ينتمي إلى التراث الأسطوري المشترك ويمكن اعتبار الفرنسية لغة خارجية - رغم أنني تعلمت الكتابة بالفرنسية - ولكنني اخترعت لغتي ككاتب من جوهر اللغة التي تعلمتها وبذلك أحتفظ بتلك المسافة الساخرة التي تسهل الاستطلاع بدون انفعال» (11)

مظهر آخر من مظاهر هذا النزوع نحو الانفصال والتميز يتجلى في إدماج الشعر في الحكمة الروائية. يقول "ديب": «أنا أساساً شاعر، ومن الشعر أتيت إلى الرواية وليس العكس» (12)

وإذا كانت شعرية السرد تولدت من ارتباطها بالرواية الشعرية والتي هي من أصول فرنسية محضة "مارسيل بروس" (Marcel Proust)، "أندري جيد" (André Gide)، "أندري مارلو" (A. Marlaux)، إلا أن "ديب" عمقها عن طريق مزجها وإثرائها بالرؤية الشعرية ذات التراث العريق في الثقافة العربية الجزائرية* (أشعار سليمان مسكين التي تعبر عن العزلة، التهميش، البحث عن الذات، وعن المجتمع).

إن هذا الإدماج قد عمل على إزالة الحدود بين الشعر والنثر، وهو محاولة للارتباط مع الشعر الشعبي العربي والبربري(13) وهذا التناوب الثقافي عمل كأداة لتهيئة التميز لا الغرائبية(L'exotisme).

ومن دلالات "الأيدولوجيا" ما يظهر في المقدمة :

«لم توجد حضارة قط، وما نظنه حضارة ليس إلا خديعة، فمصير العالم على قمم الجبال يختزل في بؤس»(14) عمل النص من خلال هذه العبارات على تحطيم المعادلة الكولونيالية التي كرس لفترة طويلة أكلوبة (المهمة التحضيرية) للأهالي المتوحشين في شكل خطاب يخفي الأيدولوجية الحقيقية للاستعمار في ثناياه.

يواصل النص إعلانه تلك الدلالات والرموز ولكن هذه المرة في استحضار الماضي المجيد: «إن أشباح عبد القادر ورجاله تجول على هذه الأراضي المستاءة، وفي مواجهة هذه المزارع الضخمة تختنق أكواخ الفلاحين القدرة لمن يفكر في المستقبل، لكن لا زلنا في سنة 1939». في مقابل حاضر منحط مزيف ضمن رؤية مستقبلية، وهكذا يصبح الوعي الممكن في مقابل الوعي الزائف، وهي علاقة تناقض وتضاد.

حضارة ≠ بؤس

زيف ≠ حقيقة

يقيم "محمد ديب" مقابلة بين الوعي الزائف والوعي الممكن من خلال وصفه لحياة الفلاحين والمصير الذي ينتظرهم، منطلقا من أيدولوجيا شعبية فلاحية.

حضارة ≠ بؤس

زيف ≠ حقيقة

شر ≠ خير

هذا الخطاب يلتمس له "ديب" قارئاً فرنسياً أو متلقياً "متروبوليا" الذي يجهل الوضع فبعد أن برهن له على صحة القضية وحقيقة النقل وواقعيته، تحول إلى متلقي عارف بما يجري في "القارة

المنسية" في "بني بوبلان" ضمن تلك النظرة التقابلية.

في حديثه عن القرية "بني بوبلان" اعتمد الكاتب على الوصف كوسيلة لتقريب هذا العالم المجهول للمتلقي من خلال مجموعة من الصفات التي تؤسس رؤيته، والهدف من ذلك هو إحداث القطيعة الفنية مع الوصف الغرائبي الذي مارسه الرواية الاثنوغرافية فالأشياء التي وصفها الكاتب في الحريق كانت بلون أحمر (...أكوام العشب المحمرة) (...يهز هذا العناء الأحمر) (الحقول اصطبغت بلون كلون الآجر) هو لون النار، الذي يوحي بالحدث العظيم "الثورة".

أسطورة الفرس الأبيض* و علامة من علامات الخلاص المرتقب من هذا الوضع المتردي الذي عانى منه الفلاحون والفئات الشعبية ككل في صراعتها اليومي. إنه فقدان الأمل والتمسك بالبديل الأسطوري للوضع الراهن بالاعتماد على المخيال الجمعي المؤسس للثقافة الشعبية التي هي في حاجة إلى بطل منخلص من جحيم الزمن الاستعماري.

مظهر آخر من مظاهر التوظيف "الأيدولوجي" ما يسمى "بالنزوع التعليمي" (Tension didactique) (15) في (الحريق) حيث أن العلاقة التعليمية تعد واحدة من المحاور الدلالية الأساسية للرواية تظهر في عدد من الحالات السردية: "عمر" يخبر الأطفال في الريف بأن الأرض كروية، "حميد سراج" يعلم الفلاحين قواعد التنظيم السياسي، "باددوش" يعطي لكل دروسا في الحكمة والفطنة، "عمر" يعطي للسيد وابنه درسا، "كومندار" يشرح "لعمر" حياة العالم الكبيرة. إذا كانت التعليمية - كما يرى "شارل بون" - ليست هي الهدف المصرح به في (الحريق) اعتمادا على حوارات "محمد ديب" فإنها تعد ميزة حقيقية للكتابة "الأيدولوجية". إنها في ظهور متطور للوعي، بمعنى أخذ الفلاحين للكلمة والتي منحت دون توقف كلمة ريفية رمزية موجهة للقارئ "المتروبولي" في عالم كانت فيه الكلمة مصادرة.

إن رواية (الحريق) عبرت عن رؤية تفاؤلية وعن وعي ممكن للكاتب، أحداثا قطيعة مع الرواية "الإثنومركزية"، وهي بهذا قد أسست للتاريخ بدل أن يؤسسها (Le texte produit de l'Histoire et producteur de l'Histoire) (المقولة لبارت) فانسجمت مع حركته من خلال استفادتها من المثاقفة مع الآخر، فواجهت هذا الأخير بشكل روائي أنتجته حضارته وبلغته.

**Jean Luis Calvet : Linguistique et Colonialisme,. Payot,
1- chapitre 3, Paris France, 1914**

**Charles Bonn: Lecture Présente de M.Dib entreprise nationale
2- du livre Algerie1988 ,p40-41**

**3 - من محاضرات الأستاذ بودريالة ألقاها على طلبة الماجستير 2004-2005 جامعة محمد
خيضر (غير مطبوعة)**

**Jacqueline Arnaud: La Littérature
4.-Maghrébine, publisud 1986 p34
5- Ibid,p35**

**- جيل فيري محامي ورجل الدولة الفرنسية ولد بسان دي (1832-1893) نائب جمهوري في
نهاية الإمبراطورية(1869) اشتغل وزيرا للتربية (1879-1883) ارتبط اسمه بالسياسة الكولونيالية
، أسس المدرسة الفرنسية التي شعارها: " Ecole Française, laïque, gratuite,et
"obligatoire**

*** - هناك مقولة مشهورة عن الاستعمار الأوروبي : الاستعمار الفرنسي عند الاحتلال يبنى
مدارس،(أكذوبة) والاستعمار الإنجليزي يبنى مؤسسات تجارية ، والاستعمار البرتغالي يبنى الكنائس.**

**Poème berbère, traduction Gabriel
6- Hanotau (1853-1944)**

**7-Yvonne Turin: Affrontements culturels dans l'Algérie
coloniale, Edition Entreprise Nationale du livre Algérie 1983
p40-41**

**-8.Robert Jaulin: La Decivilisation Politique et Pratique de
L'ethnocide , Edition Complexe Bruxelles,Belgique 1974,p 65
et 83**

9-محمد داود: الحريق للجزائري محمد ديب، شهادة ميلاد الرواية المقاومة

<http://www.annour.com>

10-نفس المرجع,

**11-Jean Dejeux : La Littérature Algérienne Contemporaine,
Que sais-je ?France 1979, p126-**

12 -interview Afrique action , mars 1961 -

* -جمع محمد ديب الحكايات التراثية المتداولة بشكل شفوي في المغرب العربي وأصدر منها أربعة كتب هي (بابا فكران) (1959) (حكاية القط الممتنع عن الكلام) (1974) (سالم والمشعوز)(2000) و(حكاية الخرتيت الذي كان يعتقد أنه قبيح الشكل) (2001)

**13-من ستة 1830 إلى سنة 1954 مجموعة من الشعراء مجهولين تناوبوا على الحديث عن ثورة
شعبهم ضد الاغتصاب الاستعماري.**

14 -الحريق ص 7و8

* -في مقال كتبه سيد أحمد بوعلي بعنوان : “سي أبوبكر أحد رموز تلمسان القديمة” ، بمجلة انعكاسات ، العدد الثاني ، سنة 1968 الصفحات 41-50 يذكر فيه أن محمد ديب تتلمذ على يد هذا العلامة ،حيث علمه الأدب ، والثقافة الشعبية الشفوية في منطقة تلمسان ، وهو الذي جعله يفتح على الحكايات، والأساطير.

.15-Charles Bonn: Lecture Présente de M.Dib cité ,p40-41